الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

بمناسبة اليوم العربيّ للمعلّم

توأمة العلم والعطاء

المعلم العربيّ قائد التّحوّل المعرفيّ

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة
بسلطنة عمان

في الثّامن والعشرين من فبراير من كلّ عام، يحتفل العالم العربيّ بيوم المعلّم، من منطلق توجيه شكر وعرفان لبناة الأجيال، والاعتراف بعميق دورهم وريادتهم في مجال التّعليم وصياغة مستقبل الأمم، فالمعلّم لم يعد مُلقِّناً للمعلومات وموصلاً للمعارف، بل تغيّر دوره ليصبح حامل مشعل التّنوير، ورائد التّغيير الاجتماعيّ، وصانع الشّخصيات التي تحمل قيمَ الإبداعِ والانتماء.

وفي هذا اليوم تقف مؤسّسات التّربية والتّعليم في الوطن العربيّ وقفة شكر واعتزاز بما يصنعه ويقدّمه معلّم الأجيال، وتحمل هذه الجهات على عاتقها مهمّة ومسؤوليّة منح المعلّم قيمته ومكانته الحقيقيّة في مجتمعه، وتآزرها في هذه المهمّة مؤسّسات المجتمع الأخرى العامّة والخاصّة، فتؤكّد مجتمعةً على أهميّة الاستثمار في المعلّم وشخصه كونه حجر الأساس في العمليّة التّعليميّة، فقد ارتبطت مكانة المعلّم منذ قديم الأزل بالعلماء والأدباء الذين أضاؤوا دروبَ المعرفة عبر العصور، فقد أكدّ العديد من العلماء من مثل ابن خلدون أنّ التّعليم صناعةٌ إنسانيّةٌ راقية، تحتاج إلى منهجيّةٍ وحكمة، وقد ترجم معلمو هذا العصر هذه الرّؤية، وحملوا هذا الإرث وحثّوا خطاهم نحو تحقيق أمجاد مجتمعاتهم، فكان هذا اليوم - يوم المعلم العربيّ - تتويجاً لهذا الإرث وذاك الإنجاز، الّذي لن يتأتّى للمعلّمين فعله وتحقيقه إلاّ بتمكينهم وتأهيلهم بشكل احترافيّ ومهنيّ، يتماشى ومقتضيات العصر الحاضر، فتتقاطع هذه الرّؤية برؤية الاتّحاد العربيّ للمدارس الخاصّة أيضاً، فالتّعليم ليس عمليّة نقل معرفيّ بحت، بل فعل وجوديّ عميق يعيد إنتاج الذّات والمجتمع، وبالتّالي فالمعلّم هو المهندس الحقيقيّ للوعي الإنسانيّ، والرّاسم لمستقبل الأمم.

من هذا المنطلق يتّضح أنّ المعلّم ليس مخزناً للمعارف وحسب، أو ملقّناً للمتعلّمين بتعليم تقليديّ بنكيّ باهت مملّ، بل هو محور أساسيّ في تحقيق وتعميق الأبعاد الفلسفيّة للتّعليم، ففي بُعد التّعليم الوجوديّ، يقوم المعلّم بدوره كمشكّل لوعي النّشء الصّغار وشباب المستقبل، وفي البُعد الأخلاقيّ، يقوم بدوره بوصفه منظومة قيميّة إنسانيّة حيّة متكاملة، وفي البُعد المعرفيّ فهو منتج ومستهلك للمعرفة وميسّر وموجّه للحصول عليها وإبداعها وابتكارها.

إذاً ليس بخافٍ أنّ المعلّم العربيّ يمثّل حجر الأساس في المنظومة التّعليميّة، إذ إنّه يحمل على عاتقه مسؤوليّة تشكيل الهويّة الثّقافيّة والفكريّة للأجيال، متجاوزاً بذلك دوره في نقل المعرفة إلى غرس القيم الأصيلة وتعميق الاعتزاز باللغة والهويّة والانتماء الوطنيّ في عصر التّحدّيات الرّقميّة والانفتاحات العالميّة، كما أنّه يساهم في بناء جسور التّواصل بين التّراث العربي والأحداث المعاصرة، محافظاً على الأصالة جنباً إلى جنب مع التّطوّر العلميّ، ممّا يجعل تأثيره يمتدّ إلى خارج أسوار المدرسة، إذ يعمل كمحفّز للتّغيير المجتمعيّ الإيجابيّ وداعم أساسيّ للتّنمية المستدامة في العالم العربيّ.

ومن الجليّ أنّ المعلّم الّذي يمارس مهنته بدافع من الحاجة لأيّ تخصّص جامعيّ ووظيفة براتب ثابت، يختلف عن المعلّم الّذي يحمل شغفاً وحباً لمهنته، ممّا يجعل هذا الشّغف المحرّك الأساسيّ لدافعيّته للعمل بالتزام وإخلاص، والعمود الفقريّ للعمليّة التّعليميّة الّتي هو محورها ، فحين يختار المعلم مهنة التّدريس عن قناعة وليس كخيار أخير بسبب معدّله المتدنّي على سبيل المثال ، ينعكس ذلك إيجابياً على أدائه

وعلى طلبته، فالمعلّم الشّغوف يسعى لابتكار طرقٍ جديدة للتّدريس، ويحفّز طلبته ويدفعهم بحماس نحو التّعلّم النّاجع المثمر، لا التّلقين السّلبيّ القاتل للمهارات والتّفكير والإبداع، ويعمل بحماسه على صنع بيئة تعليميّة محفزّة تتجاوز حدود المنهج التّقليديّ، ويكون دوماً في سعي دؤوب نحو تجاوز حدود الورق والمناهج والكلمات، ليغرس قيم حبّ العلم والمعرفة والإبداع والابتكار، كلّ هذا يمكن تحقيقه بما يحمله من يقين وشغف ليتجاوز التّحدّيات والفجوات التي قد تقف أمام تحقيقه لغاياته والقيام بأدواره، فهو حتماً سيواجه مشكلات ازدحام الفصول الدّراسية، ونقص الموارد التّعليميّة، وتداعيات الأزمات في مجتمعاته، وغيرها الكثير من معوّقات، إلاّ أنّه سيظلّ قادراً على تحويل المحنة إلى منحة، والقاعات إلى واحات إبداع، والرّوتين القاتل إلى مبادرات وإستراتيجيّات مبتكرة تحفّز الابتكار وتصنع الإبداع.

فإنْ نظر المعلّم للتّعليم كرسالة سامية أكثر من كونها مهنة حياة، تحوّل فصله الدّراسيّ إلى مساحة للإبداع وعالماً للاكتشاف، بما يستخدمه من أساليب تدريس مبتكرة تناسب مختلف أنماط التّعلّم، فمن شأن هذا الحبّ والشّغف أنْ يصنع أثراً تراكمياً في نفوس الطّلبة، إذ إنّهم يتعلّمون على يد معلّم شغوف، ويطوّرون حباً للتّعلّم يستمرّ معهم مدى الحياة، مما يؤدّي إلى تحسين مخرجات التّعليم على المستوى الوطنيّ وليس الشّخصيّ وحسب، كما أنّ المعلّم المحبّ لمهنته يصبح قدوة ملهمة لزملائه، ممّا يعني بالضّرورة رفع المستوى المهنيّ للمؤسّسة التّعليميّة ككلّ، وجعلها أكثر فاعليّة وحيويّة، فالمعلّم المتمكّن والمحبّ لمهنته قادر على إحداث تغيير جوهريّ في منظومة التّعليم، وسيتجاوز بتأثيره حدود نقل المعرفة لبناء الشّخصيّات وتشكيل فكر الأجيال القادمة.

فشتّان بين ذاك الشّغوف وبين من يدخل المهنة ويمارسها مجبراً، مفتقراً للإبداع، ولا يسعى للتّفكير فيه، ولا يمتلك الحماس والدّافعيّة لإحداث التّعلّم المنشود في نفوس طلبته، فأنّى له بترك أثر وبصمة فيهم، وأنّى له بتغييرهم والعمل على نهوض مجتمعه ورفعته؟ وأنّى له بإحداث تعلّم عميق الأثر؟ إذ إنّ كلّ ما سيتركه سيؤدّي إلى تعليم سطحي وجيل يفتقر للشّغف المعرفيّ، ووفقاً لهذا الجانب من المفاضلة، فقد وجب على الجهات الحكوميّة والخاصّة إعادة النّظر في سياسات ومعايير اختيار المعلّمين وتخصّصهم، لتشمل الكفاءة والرّغبة الحقيقيّة في التّعليم، لا المعدّل الأكاديميّ وحسب، فمن يدخل محراب التّعليم مجبراً يصنع أجيالاً مهمّشة بالية الفكر، ومن يدخله شغفاً يصنع نهضة أمّة.

وأمام مجتمع تعليميّ من الكادر المهول من المعلّمين والمعلّمات الملتحقين بالمؤسّسات التّعليميّة على صعيد الوطن العربيّ، يتحتّم علينا أمام هذه الأعداد، دعم المعلّمين والوقوف إلى جانبهم ماديّاً ومعنويّاً، وتمكينهم من خلال تحسين وضعهم المعيشيّ، وتوفير برامج تأهيل مستمرة لهم، وتعزيز مكانتهم المجتمعيّة، وتمكينهم من المشاركة في رسم السّياسات التّعليميّة، وإشراكهم في وضع المناهج الدّراسيّة، وتقييم المخرجات التّعليميّة، إذ إنّ مشاركتهم تعدّ ركيزة أساسيّة لنجاح المنظومة التّربويّة، فالمعلّمون يمتلكون خبرة ميدانيّة لا تقدّر بثمن، ولا توجد في كتب، فهي حصيلة تجارب حيّة معاشة من قلب الحدث التّعليميّ، ولدى مشاركتهم في صنع القرار التعليميّ، فإنّ ذلك يؤكّد واقعيّة السّياسات المطروحة وقابليّتها للتّطبيق، ويضمن أن تُسدّ الفجوة بين النّظريّة التّربويّة والتطبيق الفعليّ في المدارس، كما تزيد مشاركتهم في صنع السّياسات التّعليميّة من التزامهم وإبداعهم في تنفيذها، وتضمن مراعاة التّحدّيات الحقيقيّة الموجودة فعليّاً في الميدان.

ناهيك عن ضرورة أخذ آرائهم بعين الاعتبار في تغذية راجعة أو صياغة قرار، أو تنفيذ إجراء ما، إذ إنّهم يشكّلون مصدراً حيوياً للمعلومات المثرية لعمليّة تطوير وتحديث التّعليم، فهم بحكم ومنطلق تواجدهم اليوميّ في الميدان، قادرون على تحديد نقاط القوّة وفجوات التّهديد وبواطن الضّعف في المناهج والسّياسات التّعليميّة بدقّة، ممّا يعني قدرتهم على تقديم تغذية راجعة تساعد في تقييم فعاليّة البرامج التّعليميّة وتحديد احتياجات الطّلبة الفعليّة، وتحسين آليّات التّقييم وتطوير إستراتيجيّات التّدريس بما يتناسب مع الواقع الفعليّ للعمليّة التّعليميّة.

فضلاً عن ضرورة صياغة منظومة حوافز متكاملة، وعمل مراجعة منهجيّة لسياسات التّعليم المرتبطة بتمكين المعلّمين، والعمل على تعزيز الاستقلاليّة المهنيّة لهم، دون التّغاضي عن أهميّة منح الأولويّة القصوى لتمكينهم في الجانب القيميّ والأخلاقيّ، فتؤخذ مواد أخلاقيّات المهنة من باب الأهميّة كمتطلّبات تأهيل تربويّ جامعيّ للمعلّمين، وذلك لكون المعلّم قدوة مؤثّرة في طلبته بكلّ ما يقوم به وما يؤدّيه.

إنّ كلّ ما سبق ذكره جاء استجابة للحاجة الملّحة للموازنة بين حقوق المعلّم وواجباته، فضلاً عمّا يقع على عاتق المجتمعات قاطبة من دور لمنح المعلّم الاحترام الّذي يستحقّه، وتوفير بيئة عمل محفّزة له، وتقدير جهوده، وتيسير عمله بشفافيّة ومساندة، ضمن أطر مساءلة مهنيّة وموضوعيّة احترافيّة عالية، ممّا من شأنه أنْ يعيد له مكانته في المجتمع، ولن يكون هذا وليد ليلة وضحاها، بل نتاجاً لإصلاحات هيكليّة عميقة في السّياسات التّعليميّة، من مثل تطوير نظام تعويضات مجزٍ يربط بين الأداء والحوافز الماديّة،

وإنشاء مسار وظيفيّ واضح للتّرقّي المهنيّ، وإدخال معايير جديدة لاختيار المعلّمين تتجاوز المعدّلات الأكاديميّة لتشمل المهارات القياديّة والكفاءات التّربويّة، وتأسيس أكاديميّات متخصّصة للتّطوير المهنيّ المستمرّ، وتوفير برامج ابتعاث للمعلّمين المتميّزين، كلّ هذا من شأنه أنْ يساهم في تعزيز المكانة الاجتماعيّة والمهنيّة للمعلّم وتحسين جودة التّعليم.

وختام القول يتلخّص بأنّ الوطن العربيّ بأسره يحتاج ثورة تربويّة تجعل المعلم شريكاً أساسياً في صناعة المشروع التّنمويّ المنشود لنهضة تعليميّة مهولة، لا أنْ يتمّ وضعه في قالب روتينيّ لموظّف تقليديّ وحسب، فهو ليس أيّ إنسان، هو بوصلة توجيه لنهوض الأمم، ومرآة تعكس وعيهم وتطوّرهم، وحلقة وصل بين الموروث والطّموح، فهو أساس مشروع نهضويّ شامل يبدأ منه، ويكمل فيه، وينتهي بجيل تعلّموا على يديه، فيصبح بذلك أيقونة ريادية في نهضة فكريّة تعيد للأمّة العربيّة دورها الرّياديّ في مجالات المعرفة والابتكار، مع الحفاظ على الهويّة الثّقافيّة والانفتاح على آفاق المستقبل دون خوف أو انسلاخ عن أصالته، ممّا يقتضي منّا كمجتمعات ألاّ نكتفي بما نقوم به من توجيه تكريم سنويّ للمعلّمين وحسب، بل أنْ نتجاوز أطر المتوقّع منّا تجاههم، فنقوم بتفعيل شراكات بين المدارس والأسر، وبناء منصّاتٍ للحوار حول قضايا التّعليم، ونجعل إعلامنا يسلّط الضّوء على النّماذج المشرقة، وينقل صورةٍ تُعيد للمهنة هيبتها، وتجذب الكفاءات الشّابّة إليها، ونظهر حقيقة مكانة المعلّم، فهو وتين شريان الأمة، إنْ توقّف عن العطاء توقّفت معه دورة الحياة المعرفيّة، وإنْ استمرّ بالتّدفّق بالإبداع تدفّقت في الأجيال طاقة التّغيير.